[378] وبعض آخر يقول: الظلمات الاولى تشير إلى ظلمة جهل الانسان، فالجاهل لا إيمان له، وإذا سلك طريق العلم هداه هذا الطريق وأرشده. والظلمات الثانية تشير إلى الجهل الناشئ عن الجهل، أي كون الانسان لا يعلم بأنه جاهل، وهو خطر كبير; لأنّ َ الذي لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم يظن كونه هادياً ومصلحاً، لكن واقعه عكس ذلك، فجهله مركب، عكس الذي يجهل ويعلم أنّ َه يجهل فإنّ َ جهله بسيط. والظلمات الثالثة تشير إلى من يجهل ولا يعلم أنّ َه يجهل بل يتصوّ َر نفسه عالماً(1). استخدم القرآن الكريم تعبيراً جميلاً جداً في الآية 104 من سورة الكهف واصفاً هؤلاء بما يلي: (الّ َذِينَ ضَلّ َ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدّ ُنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنّ َهُمْ يُحْسِنُونَ صُنعاً). مثل هؤلاء يعدون خيانتهم خدمة، فيعصون ا ويظنون أنهم يطيعونه، وهذه هي الظلمات الثلاث المتراكمة بعضها فوق بعض.

3 ـ الجبر أم الاختيار؟ سؤال: جاء في نهاية الآية: (وَمَنْ لَمْ يَجْعَل ا ُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُور)، فهل هي تعني أن ا تعالى يمنح من نوره إلى البعض فيهتدون بالطبع، ويمنع عن البعض نوره فيضلّون بالطبع؟ أليس هذا جبراً؟ الجواب: جرت سنّ َة ا تعالى على أن يتم توفير الأرضية من قبلنا والإفاضة منه، أي نحن نوجد القابلية، والفاعلية منه تعالى. وعلى هذا يجعل ا نوره ويعطيه لمن وفّ َر في نفسه الأرضية والقابلية اللازمة للنور الإلهي. وهذا لا يعني أنّ َ ا تعالى يجعل نوره اعتباطاً ودون حساب أو كتاب، بل نور الايمان لا يدخل في قلب اللجوج والمتعصّب والمعادي للحق وسيئ السيرة ومتّ َبع الأهواء; لأنّه لم يُعدّ الأرضية اللازمة لدخول هذا النور. القلب مرآة الانسان لا ينعكس فيها النور الالهي ما لم تمسح وتنظّ َف، كما لا ينعكس لو كانت قد صدأت 1. انظر الأمثل 11: 103.